الحياة يمكن أن تمضي من دوننا

نوال السباعي

ربما لا يجد المرء في حياته محطة كالمرض ، تشده ، ترغمه على كبح جماح السرعة التي يمضي بها في هذه الحياة ، ليقف ويفكر بصورة مختلفة ، وليرى الحياة من زاوية مغايرة .

كاد المرض بعد رحيل وفقد الأحبة أن يصبح الفرصة الوحيدة في حياتنا والتي تجعلنا نعيش حالة المحنة-المنحة، التي تتكشف فيها البصائر ، ويستطيـــع الواحد منا فيها ومن خلالها أن يعيد حساباته كلها من أولها إلى آخرها .

المرض يمنحنا ضعفاً إنسانياً يذكرنا بحاجتنا إلى الله ، وحاجتنا إلى الآخرين ، ودورنا في هذه الحياة ، ويضعنا وبالضبط في نظر أنفسنا ، وربما في نظر الآخرين في مكاننا المناسب وحجمنا الطبيعي .

انه يعطينا شعوراً إنسانياً غريباً بالعجز ، ويذكرنا بأننا لن نخرق الأرض ولن نبلغ الجبال طولاً ، فيرغمنا على التخلي عن الشعور بالبطولة والنجومية ونحن نمتطي صهوة جياد العمل والأمل والتنافس والهرولة نحو قمم كثيرة صغيرة وكبيرة ، كلما بلغ المرء واحدة منها ، شعر بطعم مرارة الوصول إلى الهدف لأنه إنما يمنح الحياة طعمها الحلو الجاد للوصول وليس الوصول في حدّ ذاته، ولأن المرء يشعر أنه قطع أشواطاً وبقي أمامه أشواط ، وعليه أن يغذّ السير حثيثاً وسياط تسارع العمر وضيق الوقت تلسعه ، فلا هو يستطيع أن يحيا كما يريد ولا هو يعرف الراحة ولا الأمن

والطمأنينة ، فيأتيه المرض وهو على هذه الحال ، ليقنعه وبصعوبة بالغة بأن عليه أن يوغل رويداً رويداً ، لأن المنبتّ لا أرضا يمكنه أن يقطعها ، ولا هو أبقى خيلاً يستخدمها في ما تبقى له من رحلة .

يضطرنا المرض إلى الاعتراف بأن الحياة يمكن أن تمضي من دوننا ، ومن دون هذا الدور الصغير أو الكبير الذي طالما ظننا أن أحداً غيرنا لا يمكنه أن يسد هذه الثغرة التي نقف عليها .

مع المرض يكتشف المرء أن أولاده يمكنهم التكيف مع الحياة من دونه ، وأن أعماله يمكنها أن تسير دون إذنه ، وأن بيته لن ينهدم في حال إزاحته من الطريق ، فالحياة تمضي لا تلوي على أحد ، ولا تتوقف لمرض أحد ، ولا تغير مسارها لموت أحد .

المرض فرصة شبه وحيدة ليعرف المرء مشاعر الآخرين الحقيقية نحوه ، وليكتشف كم هي هائلة وقذرة أكوام المشاعر المزيفة التي كانت تحيط به من كل حدب وصوب .

كم هو كبير وخطير حجم النفاق وحجم الوصوليين ، وحجم هؤلاء الذين يعتبرونك دخيلاً على حياتهم ، فتكتشف على حين غرة أنك كنت أخاً لبعض من لا يريدون أخوتك ، وصديقاً لبعض من ينفر من صداقتك ، ولعل الواحد منا أن يعيش عمراً عريضاً يداري إخوانه وأصدقاءه ، وهو يعلم حقيقة مشاعرهم نحوه ولكنه يخدع نفسه محبة وإخلاصا لهم ، أو حرصاً عليهم وخوفاً من نأيه وبعده وبقائه وحيداً ، حتى يأتيه المرض فيكشف له كل الأقنعة ، ويريه بأشعة خاصة حقيقة كل الوجوه التي كان يحب رؤيتها ، وحقيقة كل الأصوات التي طالما تلهف لسماعها ، وحقيقة كل القلوب التي طالما جعلها في مكانة الملك والسلطان في قلبه ونفسه .

المرض محطة ، ولعلها المحطة الوحيدة الأكثر أهمية وإثارة ومنفعة في حياة الإنسان ، لأنها تشعره بإنسانيته وعجزه وتكشف له عن حقائق طالما جبن عن أن يكشف الستار عنها ، فتريه طبيعة الأشياء في حياته ، وطبيعة الحياة وحقيقة مكانه في هذه الحياة .

المرض .. إنه الفرصة شبه الوحيدة في حياتنا التي تجعلنا نفهم بكل أبعاد الفهم حاجتنا إلى الله ، ومكاننا في هذه الأرض نسبة إليه ، وافتقارنا الشديد إلى الاتكاء على نافذة الألم التي يفتحها لنا كل صباح ومساء لنعيش تنفس الفجر ونسائم السلام والطمأنينة ، خاصة عندما يقف الطب عاجزاً عن مساعدة المريض ، وبعد اللهاث والجريان تعود الآمال يأساً ، والدواء علقماً لا يضر ولا ينفع ، ويلتفت المرء إلى أول الطريق من حيث أتى ، ومن حيث بدأ ليرفع رأسه إلى الأعلى ، لعل نسائم الرحمة تأتيه بالفرج ، ليتذكر أنه لا شافٍ إلا الله ، ولا رافع للبلاء إلا هو .

المرض .. آلام تصفي الروح مما علق بها من شوائب ، ومعاناة تجعل القلب رقيقاً ، وتسمو بالروح إلى عوالم حب خاصة ، يكتشف فيها المرء كل أولئك المحبين المخلصين الذين طالما جعلهم على هامش حياته دون أن يلتفت إليهم ، وهو يهرول نحو قلوب متصحرة عاجزة عن مبادلته الحب أو الاخوة .. أو حتى الرثاء .

تابعوا الجديد من المقالات المتنوعة في مجلة الرائد وفي الصفحة العربية الرئيسية على :

http://www.iid-alraid.com